الفصل الثالث

طقوس الكنيسة المسيحية شرقاً وغرباً

أولاً: معنى كلمة «طقس» واستخداماتها في الكنائس المختلفة:

كلمة «**طقس**» معرَّبة عن اليونانية (τάξις = تاكسيس)، والكلمة واسعة المعنى، فهي تعني من الوجهة العسكرية أو السياسية تنظيم وترتيب الجيش أو الدولة، فهي تفيد إذاً «ترتيب أو نظام - order». وتعني أيضاً أحد الرتب العسكرية، فهي تفيد معنى «رتبة». وهي تعني كذلك «دستور». وتعني عموماً ما يجب أن يؤديه الواحد تجاه الآخر.

وفي الأسفار الإلهية ترد كلمة «طقس» لتعني «رتبة» أيضاً[1]. وأول إشارة وردت عن كلمة «طقس - t£xij» بمعنى «ترتيب»، جاءت في رسالة القديس كليمندس الروماني إلى أهل كورنثوس، والتي يعود زمن تدوينها إلى نهاية القرن الأول الميلادي[2] فيقول: «لنعمل كل شئ بترتيب Taxei في الأوقات المحددة كما أمرنا السيد أن نعمل...الخ[3]».

أما في المعنى الكنسي، فيندرج تحت تعبير «طقس» كل نظام عبادة الكنيسة، وصلواتها، وتسابيحها، وأسرارها، وأعيادها.

١- انظر: (عبرانيين ٦:٥) «أنت كاهن إلى الأبد على طقس (أو رتبة) ملكي صادق».

٢- *A Patristic Greek Lexicon*, Edited by G. W. H. Lamp, D. D., p. ١٣٧٢

٣- ١ Clem. ٤٠،١

وفي الكنيسة القبطية، انتقلت الكلمة اليونانية t£xij إلى اللغة القبطية بنفس نطقها اليوناني لتعني «طقس أو رتبة»، فمؤلف قوانين هيبوليتس القبطي في القرن الخامس استخدم التعبيرين في قوانينه[4]. وتستخدم الكنيسة القبطية الآن كلمة «طقس» أكثر من استخدامها لكلمة «رتبة»، حيث اختصت هذه الكلمة الأخيرة بالرتب الكنسية في سر الكهنوت.

أما الكنيسة السريانية بشقيها الشرقي والغربي، ويتبعها الكنيسة المارونية، فهي تستخدم دائماً تعبير «رتبة» لتعني بها «طقس».

والكنيسة البيزنطية، تستخدم لفظة يونانية أخرى هي: (τύπικον = تيبيكون)، وهي مشتق وصفي للفظة اليونانية (τύπος)، والتي تعني في الأدب الآبائي، «المثال أو الشكل أو المدلول». والصفة المشتقة من الكلمة تعني ما هو مطابق للمدلول، وهي تعني أيضاً «القانون والنظام والأصول». ويُعرَّف «التيبيكون» في الكنيسة البيزنطية بأنه كتاب الأصول المنظِّمة لإقامة الذبيحة الإلهية، والخدم الكهنوتية، وصلاة الفرض (أي صلوات السواعي والمزامير)، وباختصار فهو كتاب تنظيم مراسيم العبادة.

ثانياً: ما هو طقس الكنيسة؟

طقس الكنيسة هو تعبير تعليمها، وحارس تقليدها، ورؤية إيمانها. وهو صلاة الكنيسة الرسمية، ومضمون

٤- انظر: قوانين هيبوليتس ٦:١؛ ٣٤:١؛ ٩،٣٨:٨

أسرارها. فطقس الكنيسة ليس هو فقط واسطة دخول إلى حضرة المسيح له المجد، بل هو أيضاً مجال هذه الحضرة وديمومتها. فالإيمان علاقة بالله، والعلاقة بالله لا تكون بغير الصلاة، وكل طقس تحكمه روح الصلاة، هو أسهل وسيلة للدخول إلى حضرة الرب الإله.

والطقس الكنسي في جوهره هو استعلان ظاهر لتعبير داخلي متأجج بحب المسيح ومعترف بفضله، يظهر في لحن، أو هتاف أو تسبيح، أو حتى برقص كما هو الحال في تقليد الكنيسة الأثيوبية. ولكن عندما تضعف علاقة الشعب بإلهه، تزداد المبالغة في إبراز المظاهر الخارجية للعبادة بطقس يكفل أكبر تأثير على الفكر والسلوك الشعبيين، فتهبط العبادة إلى مستوى النشاط الآلي، وترتبط قيمتها بفخامة المراسيم التي تؤدَّى بها.

فالطقس إذاً سيف ذو حدين، يمكنه بالواحد إجلاء الإيمان واستعلانه، وبالآخر تشويشه وطمسه. فالطقس مثل القانون الذي إذا مارسناه دون إدراك لفحواه، وفهم لأسبابه وغاياته، يؤول بنا حتماً إلى صورة من صور العبودية والقهر. وهكذا إن اكتفينا بتأدية طقس الكنيسة وممارسته دون أن نفهم ونعي ما نمارسه، نلفى أنفسنا ترزح تحت نير قيود طقسية، تكبّل حريتنا وانطلاقتنا نحو عبادة حيّة بالروح. أما إن وعينا ما نمارسه من طقوس، فتصبح الطقوس الكنسية حينئذ كفيلة بأن تحيي العبادة وتجددها وتنشطها دوماً. أي أن العبادة تخلق من الطقوس وبالطقوس حياة وشركة متجددة دوماً مع

الله.

وطقس الكنيسة هو تراثها الشعبي، أو هو هوية شعبها وشخصيته، فالطقس الكنسي يحمل في داخله تاريخ جهاد الكنيسة وكفاحها، وآلامها وأفراحها، ببصمات موقَّعة على نغمات، وألحان ومراسيم. فطقوس أي كنيسة كما وصلت إلينا اليوم، ما هي إلاّ مرحلة من مراحل تطورها. ونمو الطقس لا يعني تغيّره أو تبدّله، لأن النمو يعني الامتداد مع الحفاظ على الأصول كأساس لهذا النمو. وكل شئ لا ينمو يموت، ورفض الجمود لا يعني السعي وراء كل ما هو جديد ومستحدث.

والطقس الكنسي ليس مجرد مراسيم عبادة محصورة بين الكاهن والشمامسة، في غيبة من مشاركة شعبية فاعلة، بل هو واسطة التحام شعبي بالراعي في خدمة صلاة. فالليتورجيا هي حتماً ومن منطوق اللفظة نفسها، هي خدمة شعبية، الشعب فيها عنصر رئيسي. بل إن الشعب هو الحارس الفعلي للتقليد والطقوس، لأن الأفراد عابرون زائلون، أما الشعب ككيان فلا يموت أبداً. فإن حُرم الشعب فهم الليتورجيا فلن يرى فيها سوى طقوس جميلة تكتنفها السرّية، دون أن يكون له أي دور حقيقي فيها.

وطقس الكنيسة هو أداة الالتحام العضوي بين الليتورجيا واللاهوت. فاللاهوت الشرقي خصوصاً هو لاهوت عبادي، أي لاهوت ليتورجي لا ينفصل عن نصوص صلوات الكنيسة وتسابيحها وممارساتها التعبدّية اليومية. فإن انعزل اللاهوت عن الليتورجيا يمسى تدريباً عقلانياً للمفكرين وحدهم. ولأن

طقس الكنيسة هو إيمانها متجسداً، لذلك كانت الحقائق التي يتضمنها الطقس أساسية في تشرُّب الإيمان وتغلغله في كيان الإنسان. فالطقس مياه تجري في نهر العقيدة ليروي شجرة الإيمان، إيمان الكنيسة المسلم مرة للقديسين.

إن طقوس الكنيسة ما برحت تنمو تدريجياً لتخدم قضايا إيمانية ألحّت على الكنيسة بظهور هرطقات استوجبت من الكنيسة التصدي لها بشرح الإيمان على مستويين: الأول تعليمي، والآخر تطبيقي، وظل المستوى التطبيقي لحفظ الإيمان هو الأكثر ديمومة وتأثيراً عندما صارت ليتورجيا الكنيسة هي لاهوتها المرتَّل كل يوم، وأصبحت نصوص صلواتها وتسابيحها هي نفسها قانون إيمانها. فدراسة تاريخ الطقوس لأي كنيسة هي بعينها دراسة لتاريخ إيمانها، ومن هنا كانت الحقائق التي يتضمنها الطقس الكنسي أساسية في الدفاع عن الإيمان وصونه. وإن كان الإيمان عند ترتليان هو "قاعدة الحق" و "قاعدة التقوى"، وعند إيريناوس وكليمندس الإسكندري هو "قاعدة الكنيسة"، فالطقس الكنسي إذاً هو التعبير عن الحق والتقوى.

والتجسد الإلهي الذي أكمله المسيح في الزمن هو الأساس الذي تنبني عليه طقوس العهد الجديد، فبالتجسد صارت العلاقة بين المسيح والكنيسة علاقة محسوسة من خلال طقوس الكنيسة. والبشارة بالإنجيل والتي هي ميلاد في المسيح، وقبول له، وخلاص به، وقيام فيه تكون من داخل طقس الكنيسة وتقليدها، وليس من مصدر آخر. فالإنجيل

خارجاً عن الكنيسة وتقليدها هو مدعاة للتشيّع والتحزب والانقسام، ولم تكن الهرطقات التي ظهرت في الكنيسة سوى تعليم كتابي في غيبة من الكنيسة وتقليدها.

فالطقس الكنسي يفرد للكلمة الإلهية ليتورجية كاملة لا تقل أهمية عن ليتورجية السر ولا تنفصل عنها، فبالكلمة والسر يُستعلن الله فينا. فالكلمة الإلهية في حد ذاتها حيَّة ومحيية، وقادرة على التطهير حتى النقاوة[٥]، لذلك اعتنى الطقس بليتورجية الكلمة كممهِّد ضروري وحتمي لليتورجية السر.

ثالثاً: أنواع الطقوس المسيحية:

نعرض الآن لأنواع الطقوس المسيحية التي يعرفها العالم المسيحي شرقاً وغرباً، ثم نخصص كلامنا على الشرقي منها.

ففي التقسيم العام للكنيسة المسيحية في العالم نقول: "الكنيسة اليونانية" ونعني بها الكنيسة التي أخذت من اللغة اليونانية أساساً لنشأتها ونموها. ونقول: "الكنيسة اللاتينية" وهي الكنيسة التي اعتمدت على اللغة اللاتينية لغة طقسية وليتورجية لها. الأولى هي كنيسة الشرق، والثانية هي كنيسة الغرب. وبينما الغالبية العظمى من أبناء الكنيسة الشرقية يدينون بالأرثوذكسية، فإن الكنيسة الغربية تدين بالكاثوليكية.

٥- انظر: عبرانيين ٤:١٢؛ يوحنا ٣:١٥

وفي مقابل هذا التقسيم العام للكنيسة المسيحية في العالم، نجد أن الليتورجية المسيحية أيضاً قد انقسمت هي الأخرى إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: الليتورجيات الشرقية.

القسم الثاني: الليتورجيات الغربية.

والليتورجية عموماً هي المجال الأكثر وضوحاً للتعرف على تباين الطقوس وتنوعها. وهي أفضل صورة تعكس لنا هوية الشعب الذي يمارسها وسماته الخاصة.

وجدير بالذكر أن مهمة تتبع نمو الطقس الليتورجي في الثلاثة قرون الأولى تكتنفها صعوبات جمة، بسبب ندرة المصادر التي لدينا عن هذه الفترة المبكرة من تاريخ الكنيسة. ولكن من المتفق عليه أنه منذ القرن الثالث الميلادي، وشيئاً فشيئاً بدأت الليتورجيات في النمو، وبدأت معها الطقوس في التبلور لأخذ أشكالها المختلفة، وهو ما سنعرض له تفصيلاً عند الحديث عن الليتورجيا ضمن سلسة "أسرار الكنيسة وصلواتها". أما الآن فيعنينا بالدرجة الأولى أن نلقي ضوءًا على أقسام الطقوس المختلفة في العالم المسيحي.

وهكذا الحال مع الطقوس الكنسية، فهي أيضاً تنقسم إلى قسمين: طقوس شرقية، وأخرى غربية.

ففي الشرق المسيحي، تنقسم الطقوس عموماً إلى قسمين أساسيين هما:

- الطقس السرياني.
- الطقس القبـطي.

وتحت هذين الطقسين الرئيسيين، تنضوي كافة الطقوس الشرقية الأخرى.

وفي الغرب المسيحي، تنقسم الطقوس عموماً إلى أربعة أقسام هي:

١- الطقس الروماني.
٢- الطقس الامبروزي.
٣- الطقس الموزارابي.
٤- الطقس الغالي.
٥- بالإضافة إلى الطقس السلتي.

(أ) طقوس الشرق المسيحي

(١) الطقس السرياني:

وهو ينقسم إلى قسمين:

- "الطقس السرياني الغربي" أو "الطقس الأنطاكي".
- "الطقس السرياني الشرقي".

(أ) الطقس السرياني الغربي:

ويتبعه طقس أنطاكية، وطقس الموارنة، والطقس البيزنطي. ويرى الأب كورولفسكي أن كثيراً من المؤرخين والباحثين يظنون أنه حتى حوالى القرن العاشر الميلادي بقى طقس أنطاكية واحداً تقريباً عند الطوائف الثلاث التي اتبعته

وهم: (الملكيون، واليعاقبة[٦]، والموارنة)[٧].

ويندرج تحت هذا الطقس:

١- طقس أنطاكية: حيث تُعتبر أنطاكية بعد أورشليم هي المركز الأول والرئيسي لانتشار المسيحية، إذ امتد تأثيرها إلى أرجاء بعيدة.

٢- الطقس الماروني: وهو فرع من فروع الطقس السرياني الأنطاكي، وتمارسه الكنيسة المارونية التي استقرت في لبنان، وانتظمت كنيسة مستقلة في غضون القرنين الثامن والتاسع الميلاديين حول دير القديس مارون. ومنذ الحروب الصليبية انضمت هذه الكنيسة إلى روما. وبالرغم من بقائها في شركة مع أنطاكية، إلاّ أن الموارنة لهم صفتهم الخاصة المميّزة. ولكن طقسهم بات يعاني من تأثيرات لاتينية كثيرة.

٣- الطقس البيزنطي: وهو طقس يرتبط في أصوله بالطقس السرياني الأنطاكي، ويسير في تجانس وثيق معه. وقد تشكّل هذا الطقس في العاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية (القسطنطينية). وإلى جانب العناصر الأنطاكية في هذا الطقس، فهو يحوي أيضاً عناصر من التقليد الكبادوكي.

٤- الطقس الأرمني: وقد استوحى الطقس الأرمني تقليده من كنيسة أورشليم. وبعد أن عانى الطقس الأرمني من تأثيرات بيزنطية ورومانية عليه، صار من الصعب تحديد

٦- أي أهل البلاد الوطنيين الذين يتبعون الطقس الأنطاكي.

٧- حياتنا الليتورجية، السنة الرابعة، سنة ١٩٩٢م، سنة ١٩٩٣م، ص ١٣،١٤.

العناصر التي تبقّت من أصوله الأولى.

(ب) الطقس السرياني الشرقي:

ويتبعه الطقس النسطوري، أو الطقس الأشوري، والطقس الكلداني، وطقس المالابار.

١- الطقس الأشوري: وهو طقس نشأ بين جماعات مسيحية تجمَّعت بين النهرين تحت حكم الإمبراطورية الفارسية، فتخلصت من تأثير أنطاكية عليها لأسباب جغرافية، وأخرى سياسية. وهذه العزلة التي دخلت إليها هذه الجماعات المسيحية قد أضفت عليها الانعزال العقيدي أو الإيماني، حتى نشأت مؤسسة بروأورينتي التي أفسحت مجالاً لهذه الكنيسة لكي تعرض إيمانها على الكنائس الأخرى، وكان ذلك في يونيو سنة ١٩٩٤م، ضمن الحركة الكنسية المسكونية.

وقد ظلت اللغة السريانية هي همزة الوصل بين هذا الطقس السرياني الشرقي، ونظيره الغربي الذي تركّز أساساً في أنطاكية.

٢- الطقس الكلداني: وهو الطقس الذي نشأ في غضون القرنين الخامس عشر والسادس عشر عندما انضم بعض النساطرة إلى كنيسة روما، فأسسوا بذلك الكنيسة الكلدانية، ولكنهم حافظوا على الليتورجية التي تستخدمها الكنيسة الأشورية مع بعض التعديلات.

٣- طقس المالابار[٨]: وهو طقس الكنيسة الهندية. والذين انضموا من كنيسة المالابار إلى كنيسة روما سُموا "المالانكار". ويدعوهم برايتمان[٩] Brightman "الكلدان الشرقيين"، تمييزا لهم عن "الكلدان الغربيين" الذين سبق الإشارة إليهم في البند الثاني، وكان مركز هؤلاء الأخيرين في موسول Mosul.

(٢) الطقس القبطي:

وهو ينقسم إلى: الطقس القبطي، والطقس الأثيوبي.

(أ) الطقس القبطي:

الوثائق القديمة المختصة بهذا الطقس قليلة، أو بالحري نادرة. وكتاب التقليد الرسولي الذي يعود إلى أوائل القرن الثالث الميلادي، والذي عُرف في مصر باسم "الترتيب الكنسي المصري" قد ساهم إلى حد بعيد في تشكيل الطقس

٨- والمالابار هي مقاطعة في جنوب الهند تُعرف حديثاً باسم "مقاطعة كيرالا". وكان للكنيسة الأشورية إرساليات ضخمة، حملوا فيها بشارة الإنجيل إلى أقصى الأرض. وقد تلاشى الجزء الأكبر من الجماعات التي أسسوها باستثناء كنيسة المالابار. وفي القرن السادس عشر انضمت كنيسة المالابار إلى الكنيسة الأنطاكية، لتتبع الطقس السرياني الغربي. ولكن الغزو البرتغالي الذي احتلّ هذه المنطقة، أرغم هذه الكنيسة على الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية. بل واستخدموا القوة في إقحام الليتورجية الرومانية، أو على الأقل تعديل وتغيير في الليتورجية السريانية التي كانت مستخدمة بما يتناسب مع السمات اللاتينية في الليتورجية الرومانية.

٩- F. E. Brightman, M. A., Liturgies, *Eastern and Western*, Vol. ١, *Eastern Liturgies*, Oxford, ١٩٦٧, p. Lxxvii

القبطي بكل قوانينه وشرائعه. كما يُعتبر خولاجي سرابيون (القرن الرابع الميلادي) هو أحد الوثائق الأصيلة لهذا الطقس. وفي القرن الخامس كانت قوانين هيبوليتس القبطية دليلاً واضحاً لما كان عليه الطقس القبطي آنئذ. ولازالت الكنيسة القبطية تحتفظ بليتورجية القديس مرقس الرسول اليونانية، وهي معروفة لدينا منذ القرن الثالث أو الرابع للميلاد تحت صيغة أكثر اختصاراً مما هي عليه الآن. بالإضافة إلى ليتورجية القديس باسيليوس الكبير، والقديس غريغوريوس النزينزي، وسمتاهما أيضاً مصرية.

ولقد اتضح لدينا شكل الطقس القبطي منذ زمن البابا أثناسيوس الرسولي (٢٩٦- ٣٧٣م)، وفي القرون الوسطى كان لبعض باباوات الكنيسة تأثير عليه مثل البابا خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٨م)، والبابا غبريال الثاني (+ ١١٤٦م)، والبابا كيرلس الثالث (١٢٣٥- ١٢٤٣م)، مضافاً إلى ذلك مجموعات قوانين فرج الله الأخميمي، والصفي بن العسّال في القرن الثالث عشر. أما البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فكان له تأثير واضح على استقرار الطقس القبطي لما هو عليه الآن، لاسيما ليتورجية القداس. فضلاً عن تاريخ أبو ذقن الذي نُشر في القرن السابع عشر.

أما المصادر الحديثة التي تُطلعنا على تاريخ طقوس كنيستنا القبطية فأهمها:

+ "تاريخ كنيسة الإسكندرية" الذي نُشر في باريس سنة ١٦٧٧م، للمؤرخ الأب فانسليب Vansleb الدومينكي، الذي زار

مصر في القرن السابع عشر، وتجول في كنائسها، وشاهد طقوسها آنئذ رؤيا العين.

+ "تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة" الذي نشره رينودوت Renaudot في لندن سنة ١٨٤٧م.

+ "الكنائس القبطية القديمة في مصر" الذي نُشر في لندن سنة ١٨٨٤م، للمؤرخ المدقق ألفريد جوا بتلر A. J. Butler، والذي زار مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وجاب كنائس الوجه البحري، واطّلع على طقوس الكنيسة القبطية، كشاهد عيان[١٠].

+ "كنائس وأديرة مصر" ونُشر في لندن سنة ١٨٩٥م، بواسطة العالمَين إيفيت وبتلر Evetts & Butler.

(ب) الطقس الأثيوبي:

عرفت أثيوبيا المسيحية في زمن البابا أثناسيوس الرسولي الذي سام لها أسقفاً نقل معه طقس كنيسة الإسكندرية

١٠- تُرجم هذا الكتاب أخيراً إلى اللغة العربية في سنة ١٩٩٣م، ضمن مجموعة كتب الألف كتاب الثاني التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب. وترجمه سلامة إبراهيم سلامة في أسلوب عربي مُتقن رصين.
وفي مقدمة هذا الكتاب يقول بتلر: "...والحقيقة إن القليل من القبط هم الذين يعرفون شيئاً عن تاريخهم، أو طقوسهم، أو يستطيعون تقديم تفسير للأشياء التي يعاينونها في خدماتهم اليومية. إن السؤال في نقطة طقسية يُقابَل عادة إما بهزة الرأس، أو بإجابة صارخة الخطأ تكشف عن الجهل، بالإضافة إلى ذلك، فإنه عند العثور على الشخص العالم ببواطن الأمور، فإنه يفضل عموماً أن يؤجل الحديث للغد!" (ص ١٥).
وعن خدمة القداس الإلهي في ذلك الوقت يقول: "خدمة باردة ومرتجلة، تُقام في كنائس اليوم المعتمة والمهجورة" (ص ١٨٠).

إلى هناك. ونستطيع القول بوجه عام أن الطقس الأثيوبي هو وليد الطقس القبطي، ولكنه في ذات الوقت ليس مجرد ترجمة له. فالطقوس الأثيوبية طقوس تتواءم مع سمات الشعب الأثيوبي وهويته الذاتية، وألحانه المريمية تميزه جداً على غيره من الطقوس. ولدى الكنيسة الأثيوبية ليتورجيات كثيرة، بعضها إسكندري الأصل، أما الغالبية العظمى منها فلا علاقة لها بكنيسة الإسكندرية.

هذه هي الطقوس الشرقية وأصولها التي انحصرت في عائلتين كبيرتين، هما العائلة الأنطاكية، والعائلة الإسكندرانية. وعن هاتين العائلتين تفرعّت هذه الطقوس، ومع مرور الزمن أخذت الشكل الذي هي عليه الآن.

(ب) طقوس الغرب المسيحي

طقوس الغرب المسيحي، أو الليتورجية الغربية على وجه التحديد، هو موضوع يتعدّى امكانياتنا، ويخرج عن نطاق بحثنا، ولكننا نقدّم هنا لمحة موجزة عنه لتكتمل ملامح الصورة في ذهن القارئ الحبيب.

(١) الطقس الروماني:

اعتُبرت روما المركز الرئيسي للطقس الغربي، بالإضافة إلى طقس شمال إفريقيا، وليست لدينا أية وثائق عن

ليتورجية هذا الطقس الأخير أو كتب تختص بها. إلاّ أنه قد اتضح لنا من كتابات ترتليانوس، وكبريانوس، وأغسطينوس، أن هذا الطقس كان متأثراً جداً بطقس كنيسة روما.

وطقس روما حالياً هو الطقس الذي يمارسه كل المسيحيين اللاتين. ولقد شرح ليتورجية روما كل من القديس يوستينوس الشهيد (١٠٠- ١٦٥م)، وهيبوليتس الروماني (+٢١٥م)، وخلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين تحولت الليتورجية من اليونانية إلى اللاتينية. وظلت اللغة اللاتينية هي اللغة الوحيدة لليتورجيات الغربية، على عكس ليتورجيات الشرق التي بدأت باليونانية، ثم تشعّبت إلى عدة لغات أخرى.

ويحتفظ طقس روما برصيد وافر من التآليف الشعرية التي لم تدخل في صلب الصلوات إلاّ في زمن متأخر. وصيغ الصلوات الرومانية مدوّنة في لغة شعرية ذات قافية langue harmonieuse وموزونة وموجَزة المعنى، على عكس صيغ الصلوات الغزيرة في الطقسَين الغالي والموزارابي.

ولقد تنظَّمت ليتورجية روما فيما بعد بواسطة باباوات[١١] الكنيسة الرومانية، ولاسيّما ليو الكبير،

١١- "بابا" كلمة تعرفها كل لغات العالم، فهي في القبطية ⲡⲁⲡⲁ، وفي اليونانية p£paj، وفي اللاتينية أيضاً بنفس النطق. وعُرف أسقف كنيسة الإسكندرية بلقب "بابا" منذ زمن البابا ياروكلاس الثالث عشر من باباوات الكرازة المرقسية (٢٢٤- ٢٤٠م)، وذلك قبل أن يُقنن لقباً رسمياً لأسقف روما أيضاً بأكثر من ثمانية قرون. ففي الشرق لم يُلقَّب أحد به سوى بطريرك كنيسة الإسكندرية، أما في الغرب فكان يُستخدم هذا اللقب لأي أسقف إيبارشية، وفي سنة ٩٩٨م، اعتذر رئيس أساقفة

وجلاسيوس الأول.

ومنذ عصور مبكرة قُبلت هذه الليتورجية الرومانية في كل كنائس إيطاليا، ولكن بشئ من التصرّف، إذ لم يكن تطور العائلات الليتورجية في الغرب - باستثناء روما - مرتبطاً بالكرسي الأسقفي كما في الشرق. فقد أوضح القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) أنه يتبع تقليد روما مع احتفاظه بحقه في الإبقاء على استخدامات ليتورجية غريبة عن طقس روما. وانتهى الأمر بأن فرضت ليتورجية روما نفسها وبسرعة على كافة أنحاء إيطاليا تقريباً، مع بعض التغييرات المحلية المختصة بكل منطقة على حدة.

ولقد تعرَّفنا على الشهادات المبكرة جداً للطقس الروماني من وثائق وُجدت في بلاد الغال، وفي أيرلندا. ولكن منذ زمن شارلمان(١٢)، فُرضت الليتورجية الرومانية في كل

ميلان عن تسميته "بابا". وفي سنة ١٠٧٣م، قرر البابا غريغوريوس السابع في مجمع عقده في روما، أن يقتصر لقب "بابا" على أسقف روما وحده. وليس غريباً أنه في الوقت الذي سعى فيه بابا روما ليقنن اسمه بقانون وأمر كنسي، لم نقرأ في التاريخ أبداً أن بابا الإسكندرية سعى ذات مرة ليؤكد لقبه بين أولاده، لأن لقب "البابا" قد نبع من قلب ووجدان الشعب المصري إذ لم يجد في علاقته بأسقفه، سوى علاقة الأبوة وكفى.

١٢- هناك أباطرة وملوك كثيرون باسم "شارلمان" أو "شارل"، فهناك ثلاثة عشر ملكاً من ملوك السويد باسم "شارل"، وعشرة ملوك لفرنسا بنفس الاسم، واثنا عشر ملكاً من ملوك نابولي بنفس الاسم. أما شارلمان المذكور، فهو شارل الأول ملك الفرنجة، أو ملك فرنسا (٧٦٨-٨١٤م)، وأصبح إمبراطوراً للغرب منذ سنة ٨٠٠م، وقد أشرك ابنه لويس الأول

أنحاء إمبراطوريته، فحلّت بالتالي محل الليتورجيات القديمة المحلية في كل بلاد الغال وجرمانيا(١٣).

ليتورجية روما:

كانت اللغة اليونانية هي لغة الليتورجية الرومانية حتى حلّ محلها اللغة اللاتينية منذ الربع الثالث من القرن الرابع على الأقل. والاستثناء الوحيد ذو الاعتبار هو كتاب القداس السلافوني glagolitique والمحصور في كنائس بوهيميا(١٤)، والمستخدم حالياً في منطقة دلماطيا.

وبرغم وفرة ما لدينا من معلومات عن ليتورجية روما

(٨١٢-٨١٤م) معه في الحكم، وعيّنه خليفة له، فأنشأت بذلك الأسرة الكارولينية.

١٣- الجرمان: هي مجموعة كبيرة من الأجناس بأوروبا، وهي تغلب في تكوين شعوب السويد، والنرويج، والدنمارك، وأيسلندا، وألمانيا، والنمسا، وسويسرا، وشمال إيطاليا، وهولندا، وبلجيكا، ولكسمبورج، وشمال ووسط فرنسا، وسهل اسكتلندا، وإنجلترا. ويتفق ظهورهم في التاريخ بالضرورة مع صلاتهم بالرومان، ولا يُعرف عنهم الكثير قبل الميلاد. وازداد خطر الجرمان على الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد، ولاسيما الوندال في الغرب، والقوط الشرقيون في الشرق. ومنذ القرن الثاني أو الثالث الميلادي، تفرَّق الجرمان شعوباً كثيرة أهمها الألمان، والأنجلوساكسون، واللومبارد، والساكسون، والغوط الغربيون. وأنتج الاسكندنافيون أول أدب جرماني. وظهرت منهم قبائل أخرى كثيرة في فترات شتّى من التاريخ القديم والوسيط.

١٤- هي مقاطعة قديمة بغرب تشيكوسلوفاكيا السابقة، عاصمتها براج، وتفصلها عن بافاريا غابة بوهيميا، وهو إقليم خصيب مرتفع يرويه نهر الألب، ومنذ سنة ١٩١٨م أصبح تاريخ بوهيميا هو تاريخ تشيكوسلوفاكيا.

اليونانية، إلاّ أن الأمر يختلف عندما حلّت اللاتينية محل اليونانية. إذ لم يصل إلينا من الكتب الليتورجية لروما في اللغة اللاتينية قبل القرن السابع سوى كتابات عن الأسرار للبابا ليو الكبير، وجلاسيوس الأول، علماً بأنهما ليسا المؤلفين لها، ولكنهما أعادا فقط صياغة ليتورجية روما اللاتينية في أسلوب جيّد بعد أن نظما ورتبا هذا الطقس.

وبرغم أن النص الأصلي لطقس روما كان قد تأسس في القرن الرابع الميلادي، واستقر في نهاية القرن الخامس، إلاّ أن آخر وأكبر إصلاح ليتورجي كان على يد البابا غريغوريوس الكبير (٥٤٠-٦٠٤م)، والذي صار بابا روما سنة ٥٩٠م، ولا يزال اسمه مرتبطاً باستخدام الموسيقى الكنسية في الطقس الروماني. على أن غالبية الترتيل الكنسي تعود أصوله إلى أديرة رينلاند Rhineland. ومما لاشك فيه أن عصر البابا غريغوريوس الكبير يُعتبر هو العصر الذهبي لليتورجية روما.

وليست لدى روما سوى صيغة واحدة للأنافورا الخاصة بها، ولكنها لا تخلو من بعض المرونة لتوائم المناسبات الكنسية المختلفة، على عكس الطقوس الشرقية التي تحوي عدداً وافراً من الأنافورات.

ولقد تأخر دخول الليتورجيا الرومانية إلى أسبانيا، حتى القرن الحادي عشر عندما دخلتها بواسطة غريغوريوس السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م)، في حين انحسرت الليتورجية الأسبانية القديمة، ولم تعد تُمارَس إلاّ في بعض الكنائس فقط.

وباستثناء كتاب "التقليد الرسولي" لهيبوليتس فإن أقدم مصادر ليتورجية رومانية وصلت إلينا كانت في "كتب الصلوات - Sacramentaires "، وهي كتب تحوي الصلوات التي يقولها الأسقف في مناسبات الكنيسة المختلفة. ويُسمَّى كتاب الصلوات "الليوني" نسبة إلى البابا ليون، أو لاون. كما يُسمَّى أيضاً "الفيروني" نسبة إلى مدينة فيرونا Vérone. ولا يوجد منه سوى نسخة واحدة، ممزَّقة في الجزء الأول منها.

وكتاب الصلوات الروماني القديم يحوي صلوات غير مرتبة، وغير متناسقة في الطول، جُمعت معاً لتعبِّر عن نظام السنة الليتورجية الرومانية، ولكن بطريقة تقريبية.

ولدينا كتب صلوات أخرى أكثر تنظيماً لليتورجية روما التي كانت تمارس في روما قبل العصر الكاروليني(١٥) carolingienne. وهي كتب صلوات القداس بالإضافة إلى رسائل بعض باباوات روما التي تمدنا بمعلومات قيّمة عن خصائص الليتورجية الرومانية، والتغيرات المختلفة التي أجراها الباباوات عليها.

ومنذ القرن السابع الميلادي، وبسبب وفود جماعات من أصل بيزنطي على روما، وخاصة من الرهبان الشرقيين، فقد

١٥- أسرة من الحكام الفرنجة تأسست في القرن السابع الميلادي، وبلغت هذه الأسرة أوجها في عهد الإمبراطور شارلمان الذي تُوج سنة ٨٠٠م. والإمبراطورية الكارولينية شملت ما يُعرَف اليوم بفرنسا وألمانيا. واستمرت هذه الإمبراطورية في فرنسا حتى سنة ٨٩٩م، وفي ألمانيا حتى سنة ٩١١م.

استوجب ذلك أن تُقرأ بعض أجزاء من الليتورجية الرومانية بلغتين، أي اليونانية بجانب اللاتينية خصوصاً في القراءات. فضلاً عن ذلك فإن بعض المناسبات الكنسية في الشرق قد دخلت على الليتورجية الرومانية، ولاسيّما في الأعياد المريمية، وفي تكريم الصليب المقدس، بالإضافة إلى بعض الأناشيد المصاحبة لصلوات القسمة.

وتطورت الليتورجية الرومانية بعد انتشارها خارج إيطاليا، فعند انتشارها في بلاد الغال والجرمان، عادت لتلتزم بالعناصر التي كانت تعتبرها قبلاً غريبة عليها، سواء من حيث الاستخدامات المحلية القديمة التي وُجدت في كل إقليم محلي وظلت باقية فيه، أو من جهة الطقوس الجديدة التي أُلحقت بها. فلقد كانت الإمبراطورية الكارولينية Empire Carolingien تستخدم ليتورجيا روما بعد أن أضافت عليها بعض استخداماتها الخاصة لتوافق بيئتها المحلية، حتى إلى الحد الذي أصبحت فيه كتب الصلوات الخاصة بالاحتفالات الطقسية مختلفة من مدينة إلى مدينة، بل وحتى من كنيسة إلى أخرى في نفس المدينة الواحدة في تلك العصور الوسطى.

وفي روما نفسها كانت لكل بازيليكا[١٦] ليتورجيتها الخاصة والتي تختلف عن تلك التي كان يُصلّى بها في كاتدرا البابا الروماني. ولكن الاستخدامات القديمة في الطقس الروماني عادت إلى الليتورجية الرومانية على يد البابا

١٦- كنيسة كبيرة مبنية على الطراز البازيليكي. وسيأتي توضيح لمعنى الطراز البازيليكي في كتابنا "الكنيسة - مبناها ومعناها" إن شاء الرب وعشنا.

الروماني ذي الأصل الجرماني في نهاية القرن الحادي عشر.

أما الإصلاح الليتورجي الذي حدث في عصر البابا إينوسنت الثالث (١١٦٠-١٢١٦م) والذي صار بابا روما سنة ١١٩٨م، فيعتبر نقطة تحول في تاريخ الليتورجية الرومانية. ولكن تعرقل أيضاً هذا الإصلاح بسبب تفضيل المعنى الرمزي والمعنى القانوني على المعنى الأساسي لليتورجية، فانصب الاهتمام على أدق التفصيلات الفرعية، وحلت الاهتمامات القانونية محل الإصلاح المنشود، فغاب معنى الليتورجيا كاحتفال كنسي يشترك فيه الشعب والإكليروس.

وبعد اختراع الطباعة، ثم الإصلاح الليتورجي الذي نشأ عن مجمع ترنت[١٧]، فقد قلّت جداً هذه الاختلافات. ولكن الانقسام الذي حدث في الكنيسة الرومانية في القرن السادس عشر أعاق إصلاحات مجمع ترنت، مما أدى إلى تجميد الوضع القائم.

وحاول البابا بندكت الرابع عشر (١٦٧٥-١٧٥٨م) إجراء بعض الإصلاحات الليتورجية، فتعوّق هو الآخر، ولم يؤبه له، وفي الحقيقة فإن تدخل الباباوات كثيراً في محاولة إصلاح الليتورجيا الرومانية كاد أن يفقدها هويتها الذاتية. وجاء القرن العشرين حين بدأ هذا الإصلاح مرة أخرى في عهد البابا بيوس العاشر، وامتد إلى زمن البابا بيوس الثاني

١٧- مدينة ترنت تقع شمال إيطاليا وتحوي المدينة تمثالاً لدانتي، وعُقد بها مجمع كاثوليكي في القرن السادس عشر (١٥٤٥-١٥٦٣م) وهو المجمع التاسع عشر من مجامع الكنيسة الكاثوليكية.

عشر. ثم تقنن الإصلاح أخيراً بواسطة مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢- ١٩٦٥م).

(٢) الطقس الأمبروزي:

نسبة إلى واضعه القديس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أسقف ميلان[١٨]، ويُدعى أيضاً هذا الطقس "طقس أمبروسيوس" أو "طقس ميلان"، وهو الطقس الذي استُخدم في إيبارشية ميلان القديمة، ولا زال يُمارس بها حتى اليوم. وهو واحد من الطقوس القليلة غير الرومانية التي بقيت إلى الآن في الكنيسة الكاثوليكية في الغرب.

وعلى الرغم من أنه قد تشبّع بعناصر من ليتورجية روما، إلاّ أنه قد نجح في المحافظة على أساسيات الممارسات التقليدية الخاصة به، وبذلك استطاع الحفاظ على أقدم شكل ليتورجي غربي وهو الطقس الغالي، والذي سيرد ذكره فيما بعد.

وتمسكت ليتورجية أمبروسيوس باستخدامات رومانية قديمة أهملتها روما نفسها فيما بعد، ولكنها من جهة أخرى تحوي استخدامات خاصة سواء في القداس أو في الخدمات

١٨- مدينة شمال إيطاليا، وهي من أهم أسواق أوروبا لبيع الحرير، وأكبر مدينة صناعية بإيطاليا، وأصبحت مركزاً دينياً لشمال إيطاليا منذ أن أصبح القديس أمبروسيوس أسقفاً لها. وتأسست بها كنيسة القديس أمبروسيوس سنة ٣٨٦م، وبها كنيسة "سانتا ماريا" التي رسم فيها ليوناردو دافينشي لوحته الشهيرة "العشاء الأخير"، وبها جامعتان، ومكتبة، وكلية للفنون الجميلة، ومركز موسيقي هام.

الطقسية. ونلاحظ تماثلاً في توافقها مع الطقس الغالي، وخاصة في اختيار القراءات. لذلك يضع البعض الطقس الأمبروزي كأحد الطقوس التي تتبع طقس روما، ولهم في ذلك أسباب معقولة، بينما يعتبره البعض الآخر أنه قريب من الطقس الغالي في كثير من النقاط أهمها اختيار فصول القراءات كما ذكرنا. واليوم يُنظر إلى الطقس الأمبروزي على أنه ذو أصول غربية لا علاقة له بالشرق.

ويعرف الطقس الغربي ما يُسمى "قانون (نظام) القداس[١٩] - Le Canon de la mess "، و"قانون القداس" في الطقس الأمبروزي له شكل مختلف عن نظيره الروماني.

وتقديم القرابين Offertory في هذا الطقس يتم قبل قانون الإيمان، مصحوباً بدورة احتفالية، على عكس الطقس الروماني الذي تُقدَّم فيه القرابين بعد قانون الإيمان.

ويلزم التوضيح هنا أن تقدمة القرابين في الطقس الروماني تأتي متأخرة نوعاً في الصلاة الليتورجية، أي بعد القراءات وقانون الإيمان، أي في بداية قداس المؤمنين، ويتم

١٩- "قانون القداس" هو جزء من القداس تعرفه كافة الليتورجيات الشرقية والغربية. وهو الجزء الذي يحوي كلمات التأسيس، والذي لا تتغيّر كلماته في الليتورجيات الشرقية، باستثناء قداس أدي وماري Addai and Mari، أما في ليتورجية الغال وأسبانيا فلا يحمل "قانون القداس" صيغة ثابتة في كليهما، حيث تحوي الصلوات الكهنوتية فيهما قِطَعاً أو أجزاء متغيّرة تتجمع حول رواية التأسيس.

وعلى الرغم من أن "قانون القداس" الروماني قد وُضع على أساس النموذج اليوناني للقداس، إلاّ أنه لا يشبهه. وقد نالته بعض التعديلات في الغرب على يد البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠- ٦٠٤م).

تقديم القرابين بواسطة المحتفِل نفسه (الكاهن) نيابة عن الشعب. ولكن حديثاً، بعد أحدث تغيير على الطقس الروماني، أصبح العلمانيون هم الذين يقدّمون القرابين أي الخبز والخمر بالإضافة إلى الهبات والعطايا، وحتى الأموال أيضاً، إلى المذبح أثناء ترتيل بعض الألحان المصاحبة للتقدمة، وذلك نقلاً عن طقس ميلان أقدم الطقوس الغربية.

ففي طقس ميلان يتم تقديم القرابين بواسطة الشعب نفسه، حيث يتقدّم أربعة من العلمانيين من كبار السن، اثنان من الرجال، واثنتان من النساء، نيابة عن كل الشعب، لتقديم القرابين، وهؤلاء العلمانيون الأربعة هم ضمن عشرة من العلمانيين الكبار السن من الجنسين والذين يُدعون Vecchioni.

وكثيراً ما تعرقلت الدراسات التي أجريت على هذا الطقس الأمبروزي بسبب ندرة النصوص القديمة. وقد بُذلت محاولات ممتازة لاستعادة أصول هذا الطقس، قام بها شارلز بوروميو Charles Borromeo أسقف ميلان في القرن السادس عشر (١٥٣٨-١٥٨٤م). وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، وبفضل مجموعة علماء من ميلان(٢٠)، أمكن حذف العناصر الدخيلة على هذا الطقس في العصور المتأخرة. وفي سنة ١٩٧٦م، تم تنقيح كتاب الصلوات الليتورجية Missal لهذا الطقس طبقاً لقرارات مجمع الفاتيكان الثاني، والتقليد القديم لهذا الطقس.

٢٠- ومن بينهم "راتي - Ratti " وهو الذي أصبح فيما بعد البابا بيوس الحادي عشر، وشوستر Schuster.

(٣) الطقس الموزارابي:

نقصد بتعبير (الطقس الموزارابي Le Rite Mozarabe) الطقس الأسباني القديم. وإن كانت مصادره مبهمة، لكنه تأسّس على أسس واضحة. وقد حدث له تطور كامل في غضون القرن السادس الميلادي، ويظهر من هذا الطقس تأثير النضال الذي ناضله ضد التعاليم الأريوسية التي حملها الغزاة الغوط الغربيون إلى أسبانيا في القرن الخامس، كما حدث في الليتورجيات الشرقية. وقد أضرّ الغزو الإسلامي لأسبانيا بهذا الطقس ضرراً بالغاً لا يمكن إصلاحة. ومن بعده تسببت روما هي الأخرى، عن طريق الرهبان الكاثوليك في تشويه هذا الطقس في نهاية القرن الحادي عشر عندما فرضت عليه ممارساتها الرومانية. وفي نهاية القرن الخامس عشر قام أحد الكرادلة ويُدعى "إكسيمينز - Ximénès " بمحاولة لاستعادة هذه الليتورجية القديمة وجعلها صالحة للاستخدام كما هو حادث الآن في كاتدرائية طُليطله(٢١).

٢١- طُلَيطِله: هي مدينة وعاصمة مقاطعة في وسط أسبانيا بإقليم قشتاله الجديد. وقشتاله أي كستلا بالأسبانية هي مملكة قديمة بشمال ووسط أسبانيا، وتتقسم هذه المملكة إلى منطقتين: قشتاله القديمة، ومساحتها تزيد قليلاً عن خمسين كيلومتراً مربعاً، ويقطنها حوالي ٢ مليون نسمة في الشمال، وقشتاله الجديدة، ومساحتها تزيد قليلاً عن اثنين وسبعين كيلومتراً مربعاً، ويقطنها أكثر قليلاً من ٣ مليون نسمة في الجنوب، حيث مدن: مدريد العاصمة، وطليطلة (المدينة التاريخية)، وكونسكا. وقد ترتب على زواج إيزابلا الأولى ملكة قشتاله من فرديناند الثاني ملك الأراجون (مملكة قديمة شبه صحراوية شمال شرق أسبانيا مساحتها أكثر قليلاً من ٤٧ ألف كيلومتر مربع، ويغلب على أهلها الفقر

والطقس الموزارابي قريب الشبه جداً بالطقس الغالي Gallian Rite ويظن كثير من العلماء أنه مأخوذ منه، بينما يعتقد آخرون إحتمال دخول تأثيرات عليه. وهناك عناصر من هذا الطقس يبدو أنها أُدخلت عليه مباشرة من الطقس البيزنطي مثل دورة القرابين. وربما كان ذلك في القرن السادس الميلادي. والطقس الموزارابي يتسم باستخدامه لصيغ تتغيّر من يوم إلى يوم بحسب التقويم الطقسي Calender.

وفي أسبانيا؛ هناك تمييز واضح بين الطقس الكاتدرائي Ordo Cathedralis الذي يُمارس في كنائس المدن، وبين الطقس الديري Monastic Offices الذي يُمارس في الأديرة. وهذا التمييز بين الطقسين الكاتدرائي والديري قد اختفى تماماً وبصفة نهائية في الطقس الروماني Roman Rite.

والخدمة الكاتدرائية في الطقس الموزارابي تتكون من

والتدين) اتحاد المملكتين معاً، حيث دام هذا الاتحاد حتى سنة ١٥١٦م، حين اعتلى العرش حفيدهما شارل الأول، والذي صار الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد، وغدت لهجتها هي اللهجة الأدبية في أسبانيا كلها، وامتزج تاريخها بتاريخ أسبانيا.

وطليطلة من أهم مدن أسبانيا ثقافياً وتاريخياً، ويرجع تاريخها إلى ما قبل الرومان، إذ سقطت في قبضتهم سنة ١٩٣ق.م، وهي مركز أسقفي قديم، وكان أساقفتها يُختارون رؤساء لأساقفة أسبانيا. وبلغت قمة ازدهارها إبان حكم العرب لأسبانيا (٧١٢-١٠٨٥م) حينما اتخذها العرب مقراً لحكمهم. واعتُبرت العاصمة الروحية للكاثوليكية الأسبانية، ومن روائعها الكاتدرائية القوطية، وكنيسة "سانتو تومي" أي "القديس توما"، وكنيسة "سانتا ماريا" أي "القديسة مريم"، وكلها تعود إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

صلاة الغروب Vespers، وصلاة السَحَر Mattins، مع مزامير مختارة أو أجزاء منها تُرتّل بمصاحبة قرار أو مرد refrains على طريقة الأنتيفونا. أما الخدمة الديرية في شكلها المتطور فهي تشمل اثنتا عشرة خدمة نهارية، واثنتا عشرة خدمة ليلية.

وكتب الصلوات الطقسية في الطقس الموزارابي تحوي نصوصاً قديمة في صيغتها البدائية المبكرة، وذلك على عكس طقس روما الذي يحوي كتبه الطقسية مزيجاً من عناصر مختلفة كما في كتاب القداس Missal وكتاب الصلوات Breviary.

وكتب الصلوات في روما تحوي عناصر من الطقس الموزارابي، لاسيّما في صلوات التجنيز. واستُخدم الطقس الموزارابي في تاريخ متأخر في تصنيف خدمة المعمودية benedictio fontis في كتاب الصلوات الروماني الذي طُبع سنة ١٥٤٩م.

ليتورجية الطقس الموزارابي:

وليتورجية الطقس الموزارابي يضمها كتابان، الأول هو كتاب الطقس الذي طُبع في سنة ١٥٠٠م، والثاني كتاب الصلوات الذي طُبع سنة ١٥٠٢م، وهما الكتابان اللذان طُبعا بأمر الكاردينال إكسيمينز - Ximénès والذي صار أسقفاً على طُليطله سنة ١٤٩٥م، حيث استخدمت هذه الليتورجية في بعض كنائس إيبارشيته. لكن الاستخدام الحالي لها، وكذا الكتابان المشار إليهما، لا يعطينا فكرة واضحة عن غنى الليتورجية الأسبانية القديمة، والتي حلّ محلها نهائياً الليتورجية الرومانية حسب طقس البابا غريغوريوس السابع

في نهاية القرن الحادي عشر، عندما استعاد المسيحيون أسبانيا من العرب، وأدخل الرهبان الكولونيون(٢٢) Cluniac Monks الليتورجية الرومانية، وفرضوها على الطقس الأسباني القديم. وهكذا تضافرت جهود العرب وروما معاً على طمس معالم الليتورجية الأسبانية القديمة.

ولدينا مخطوطات قديمة، خصوصاً من القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين، وقد طُبع منها عدد كبير، تشهد أن هذه الليتورجية الأسبانية القديمة لم تنشأ خلال فترة الاحتلال العربي لأسبانيا (٧١٢-١٠٨٥م)، ولكنها تنظمت وتوحدت في عصر الغوط الغربيين L'époque Wisigothique كما تشهد بذلك المجامع الغربية. إلاّ أن التاريخ المبكر لهذا الطقس مُبهم للغاية، ووردت عنه إشارة سنة ٦٣٣م، في مجمع طُليطله الرابع.

وهناك تأثيرات شرقية قوية على هذه الليتورجية منذ القرن السابع، أعطتها سمتها الخاصة، غير أنها من أصل مختلف تماماً عن الليتورجية الرومانية. فهي لا تحوي طقساً ثابتاً، لكنها تتكون من أجزاء متحركة أو متغيرة يتجمع معظمها حول صلوات رواية التأسيس.

وأهم ملامح هذه الليتورجية هي أن لها ثلاثة فصول تُقرأ أثناء قداس الكلمة: الأول؛ النبوة وهي عادة من العهد

٢٢- هم رهبان من دير كولوني Cluny، وهو أشهر وأكبر دير في الغرب. تأسس سنة ٩١٠م، وكانت كنيسته التي شُيدت في القرن الثاني عشر أكبر بازيليكا في أوروبا على الإطلاق. وقد تهدّم أثناء الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

القديم. الثاني؛ رسالة من رسائل العهد الجديد. والثالث؛ فصل من الإنجيل.

وقد حفظ هذا الطقس تسريح الموعوظين والتائبين قبل بداية قداس المؤمنين. وله في طقس التسريح لحن يُسمَّى (Sacrificium) تعقبه صلاتان، الأولى تُسمَّى (Missa)، والأخرى تُدعى (Alia). الصلاة الأولى من هاتين الصلاتين توصف بأنها صلاة تنبيهية أو تحذيرية oratio admonitionis توجَّه إلى الشعب لتنهض همته للصلاة بغيرة وانتباه. أما الصلاة الثانية فهي مقدمة القداس (Preface)، وتتغير صيغتها في كل قداس، وهي طويلة متقنة. أما الصلاة التي تُسمى (post pridie) فهي شكل من أشكال صلوات الاستدعاء epiclesis. والقسمة في هذه الليتورجية تقسم القدسات إلى سبعة أو تسعة أجزاء، طبقاً لطقس الكاردينال إكسيمينز Ximénès، وهذه الأقسام تمثل مراحل حياة المسيح، ووُجدت هذه الممارسة بعينها أيضاً في الطقس السلتي Celtic Rite الذي تمارسه كنيسة أيرلندا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين. ولأن كتب الصلوات الأيرلندية تحوي كثيراً من الاستعارات من الطقس الموزارابي، فقد اعتقد كثير من العلماء أن الطقس السلتي في كنيسة أيرلندا قد استعار مباشرة من الطقس الموزارابي لكنيسة أسبانيا.

ولقد كُتبت صلوات الليتورجية الأسبانية القديمة بإسهاب، وفي أسلوب غني. والصلوات الكهنوتية الموجهة فيها إلى السيد المسيح كثيرة، على عكس طقس روما الذي يندر فيه هذا النوع من الصلوات والذي أُضيف في عصور

متأخرة. ومخطوطات القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين قد حفظت لنا جانباً كبيراً من السمات الأساسية لليتورجية الأسبانية كما كانت تُمارس في القرن السابع الميلادي. وفي المقابل نجد في كتب الصلوات الأسبانية أجزاء منقولة من كتب الصلوات الرومانية، ولكن بعد إعادة صياغتها.

وقد مارست الليتورجية الموزارابية تأثيراً قوياً على ليتورجية الغال(٢٣)؛ وعن طريق الطقس الغالي، دخلت بعض الصلوات على الليتورجية الرومانية في العصور الوسطى.

وفي العصر الحديث، تُبذل محاولات جادة لإعادة إدخال ممارسات الطقس الموزارابي في الخدمات الكنسية الغربية، أما الليتورجية الخاصة بهذا الطقس فقد استُخدمت بالفعل في الصلوات التي مارستها الكنيسة الغربية أثناء فترة انعقاد مجمع الفاتيكان الثاني.

(٤) الطقس الغالي:

كان هناك جدل طويل بخصوص تحديد أصل هذا الطقس، وهو طقس قديم تنتمي إليه عادة الأربعة أنواع من الطقوس الغربية، وهي طقوس كنائس روما، وميلان،

٢٣- الجزء الجنوبي الغربي من بلاد الغال كان جزءًا من مملكة الغوط الغربيين. وقد حافظت هذه المملكة على هذه الليتورجية الموزارابية أو الغوطية إلى الوقت الذي حلّت فيه الليتورجية الرومانية محلها في نهاية القرن الحادي عشر.

وأسبانيا، وأيرلندا. على الرغم من أن هذه الطقوس مستقلة عن بعضها البعض، باستثناء الطقس الموزارابي، وهو طقس أسبانيا القديم كما يرجح ذلك بعض العلماء.

ويُستخدم تعبير "طقس الغال" ليشير إلى ثلاثة معاني:

- الأشكال الليتورجية التي استُخدمت في بلاد الغال Gaul قبل أن يُفرض فيها طقس روما بواسطة الإمبراطور شارلمان في بداية القرن التاسع.
- ويعني عموماً كل الطقوس التي كانت تُمارس في كنيسة الغرب في العصور المبكرة، باستثناء طقس روما.
- الليتورجيات الحديثة للطقس الغالي التي عُرفت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتي تتبع الأشكال الليتورجية للطقس الغالي القديم.

ولسنا نعرف بالتحديد لماذا اختلفت طقوس شمال إيطاليا والغال وأسبانيا وأيرلندا عن طقس روما في العصور المبكرة من تاريخ الكنيسة. فحتى علماء الطقوس أنفسهم لم يتّفقوا على العلاقة التي تربط هذه الطقوس ببعضها البعض. ولقد قُدِّمت في ذلك بعض الآراء منها:

- تقول نظرية قديمة إن الطقوس غير الرومانية تعود أصولها الأولى إلى أصل رسولي في أفسس(٢٤). ومن هنا فقد

٢٤- أفسس: ميناء على شاطئ آسيا الصغرى. خضعت لروما سنة ١٣٣ق.م، وكانت تحتل مكان الصدارة بين مدن آسيا. ومن أهم معالمها معبد أرطاميس الذي كان يُعتبر إحدى عجائب العالم القديم. وصارت أفسس مركزاً رئيسياً للمسيحية بعد أن أقام بها القديس يوحنا الحبيب مع

انتشرت هذه الطقوس في الغرب عن طريق ليون(٢٥). أما الاعتراض الذي يدحض هذه النظرية ولا يمكن التغلب عليه فقد أتى به "لويس دوشسن(٢٦) - Louis Duchesne " (١٨٤٣-١٩٢٢م)، فقال: إنه لا يوجد طقس في القرن الثاني الميلادي يمكن أن ينتشر انتشاراً سريعاً بهذا الشكل، ويعتمد أيضاً على التقويم الكنسي الليتورجي أو الطقسي calender مثلما كان معروفاً عن طقس الغال.

- قال آخرون مثل الأب كاجين Dom P. Cagin إن هذا النوع من الطقوس غير الرومانية يمثّل طقس روما في وضعه البدائي الأولي. وتفترض هذه النظرية - بدون أي شواهد أو إثباتات - أن طقس روما قد حُفظ في شكله الحالي تحت تأثير البابا داماسوس Damasus حوالي سنة ٣٨٤م.

السيدة العذراء حتى قرب نياحتها. وقد زارها القديس بولس الرسول وكتب إليها إحدى رسائله.

٢٥- ليون: أهم مدن صناعة الحرير في أوروبا، وهي عاصمة قسم الرون، شرق وسط فرنسا، وقد أُنشأت المدينة كمستعمرة رومانية سنة ٤٣ق.م، ثم أصبحت أهم مدن بلاد الغال، ومهد المسيحية في فرنسا. وقد ظل يحكمها أساقفتها حتى سنة ١٣٠٧م، حينما ضمها فيليب الرابع مع المنطقة المحيطة بها إلى أملاك التاج الفرنسي. ومن أشهر أساقفتها القديس أمبروسيوس أسقف ميلان.

٢٦- مؤرخ كنسي فرنسي سيم كاهناً سنة ١٨٦٧م، واستكمل دراساته اللاهوتية في روما، وسافر لهذا الغرض إلى اليونان وآسيا الصغرى. وفي سنة ١٨٧٧م، عُين أستاذاً للتاريخ الكنسي في المعهد الكاثوليكي بباريس، ومنذ سنة ١٨٩٥م، وحتى وفاته صار مديراً للمدرسة الفرنسية في روما. وفي سنة ١٩١٠م، أصبح عضواً في الأكاديمية الفرنسية.

- هناك نظرية ثالثة أكثر شمولاً، لاقت في البداية قبولاً واسعاً، وهي للأب دوشسن السابق ذكره، يقول فيها: إن الليتورجيات أتت من ميلان، وفي غضون القرن الرابع والخامس الميلاديين كان لها تأثير ونفوذ واسعٌ. ولكن هذه النظرية لم تعد مقبولة منذ أن بحث العالم كونوللي(٢٧) R. H. Connolly عمن يكون مؤلّف كتاب "الأسرار - De sacramentis (٢٨)"، وتوصّل إلى أنه هو القديس أمبروسيوس أسقف ميلان.

٢٧- عالم آبائي، اسمه بالكامل ريتشارد هوف كونوللي (١٨٧٣-١٩٤٨م)، وقد تخصص في آباء الكنيسة الذين كتبوا منذ نهاية القرن الأول المسيحي - وهو الوقت الذي اكتمل فيه تقريباً تسجيل كتاب العهد الجديد - وحتى نهاية القرن الثامن الميلادي. وهي الفترة التي يسميها الغرب "زمن الآباء - patristic period ". ومن أهم إنجازاته العلمية، تحقيق كتاب "التقليد الرسولي لهيبوليتس"، والذي عُرف باسم "الترتيب الكنسي المصري - Egyptian Church Order " سنة ١٩١٦م، وكتاب "الدسقولية" أي "تعاليم الرسل - Didascalia Apostolorum " سنة ١٩٢٩م، وفي سنة ١٩٤٢م، أثبت نسبة كتاب "الأسرار - De Sacramentis " للقديس أمبروسيوس أسقف ميلان. وله عدة مقالات في مجلة الدراسات اللاهوتية Journal of Theological Studies من بينها بعض المقالات الهامة عن "الديداخي".

٢٨- هو مقالة ليتورجية قصيرة عن الأسرار، للقديس أمبروسيوس (+ ٣٩٧م)، تشتمل على ستة فصول، وهي موجهة للمعمدين الجدد في أسبوع الفصح، وتعالج موضوعات المعمودية، والميرون، والإفخارستيا. وتعود أهميتها الفريدة إلى أنه أقدم شهادة عن طقس روما، وتثبت تأثير طقس روما على طقوس شمال إيطاليا. ويؤكد القديس أمبروسيوس على أن كلمة "المسيح" تقدّس الإفخارستيّا، والتي يدعوها "تقدمة غير دموية". وكان بعض العلماء أمثال تليمونت N. Tillemont، وشيرمان T. Schermann قد نسبوا الكتاب إلى مكسيموس أسقف تورين Maximus of Turin (٤٥١-٤٦٥م). وتورين؛ مدينة تقع شمال غرب إيطاليا، كانت عاصمة لإيطاليا في الفترة من سنة ١٨٦١ ١٨٦٤م، وبها كاتدرائية تعود إلى عصر النهضة، وتأسست

وهو الكتاب الذي يحوي بعضاً من طقوس روما Roman Canon.

- وربما تكون وجهة النظر الأكثر قبولاً الآن هي أن الطقس الغالي نشأ أصلاً في موطنه "الغال"، ثم تطور بإضافة مقدمة ذات صلوات متغيّرة تناسب كل منها التقويم الكنسي الطقسي Calender. أما أقدم شاهد لهذه النظرية فيأتينا من مؤلّف جناديوس الذي من مارسيل(٢٩) Genadius of Marseilles سنة ٤٥٠م. والذي أورد اختياراً للقراءات lections والمردات responsories التي تناسب أيام الأعياد. وتحوي كما قيّماً من القداسات المقسّمة إلى فصول لتناسب تنوع الخدمات الكنسية offices والفصول الكنسية seasons.

وتأليف القداسات هو عمل أدبي نبع من الغال وأسبانيا، وكثير من هذه القداسات يعود إلى مؤلّف عاش في القرن الخامس هو سيدونيوس أبولليناريس(٣٠) Sidonius Apollinaris،

بها جامعة سنة ١٤٠٥م، وكان يُظن أن بها كفن السيد المسيح الذي كُفّن به في القبر، لكن العلماء قد أثبتوا عدم صحة هذا الزعم.

٢٩- كاهن ومؤرخ كنسي، وعمله الرئيسي الذي خلده هو إكماله لكتاب جيروم "مشاهير الرجال" Viris Illustribus والذي أكمله في سنة ٤٨٠م، ويحوي ١٠١ ملاحظة لمؤلفين كنسيين من الشرق والغرب، أكثرهم من القرن الخامس الميلادي. وهو في معتقده كان نصف بلاجي semipelagian.

٣٠- هو أسقف مدينة كليرمون Clérmont وتُسمّى أيضاً فيران، وتقع شمال شرق فرنسا، وترجع في تاريخها إلى العصر الروماني، أعلن فيها البابا إربان الثاني عن الحروب الصليبية لأول مرة. تزوج هذا الأسقف ابنة الإمبراطور أفيتوس Avitus (٤٥٥-٤٥٦م) في بدء حياته، واشترك في العمل السياسي وفي سنة ٤٦٩م، أُختير أسقفاً لكليرمون

(٤٢٣-٤٨٠م).

أما كتب القداس الغالي Mass books والتي لازالت موجودة حتى الآن، فلا ترجع لأبعد من القرن الثامن الميلادي، وقد أُقحم عليها طقس روما في أجزاء منها، باستثناء أحد عشر قداساً تعود إلى القرن السابع الميلادي، وتُعرف في الأوساط العلمية باسم "قداسات مون(٣١) - Mone Masses "، حيث نشرها العالم مون، وهي قداسات من أصل غالي نقي لم يؤثر طقس روما عليها. ويغيب فيها أي ذكر لأي دورة ليتورجية للأعياد الكنسية.

أما قداسات الطقس الغالي الحالية، فهي قداسات طويلة مسهبة، تأتي في صيغة خطابية، خلافاً لصيغة قداس روما الصارمة auster form. وحتى بنية الصلوات في الطقس الغالي تختلف عن طقس روما أيضاً. وفي المقابل فإن بعض خواص

ليدافع عن المدينة ضد الغوط. وله كثير من العظات والأشعار الغزيرة. أنعم كثيراً على الرهبان ووزع عليهم كثيراً من ثروته. ولكن مجهوداته لم تمنع الغوط الغربيين من احتلال كليرمون سنة ٤٧٥م، حيث أُقصي عن منصبه وسُجن، ثم أُفرج عنه سنة ٤٧٦م، وأُعيد إلى خدمته، فقضى بقية حياته في تجميع رسائله التي كتبها. ولا زالت ٢٤ قصيدة من مجموع أشعاره موجودة حتى اليوم تُظهر مدى موهبته. أما عن رسائله، فبرغم أنها لا تحوي عمقاً لاهوتياً كبيراً، إلاّ أنها تُعتبر مصدراً مهماً للتعرف على زمنه الذي عاش فيه. أما صلواته الإفخارستيّة التي جمعها القديس غريغوريوس أسقف تورس فقد ضاعت كلها. وهو يُكرّم في بلاد الغال كقديس، وتعيّد له الكنيسة هناك في ٢١ أغسطس من كل سنة.

٣١- هو فرانز جوزيف مون Franz Joseph Mone (١٧٩٦-١٨٧١م)، وهو مؤرخ وعالم ليتورجي ألماني، وله كتاب جمع فيه ألحان العصور الوسطى.

الطقس الغالي نجدها موجودة في الطقس الموزارابي، والطقس السلتي، وحتى الطقس الأمبروزي أيضاً.

أما المميزات التي يتميز بها الطقس الغالي فهي:

أولاً: القداس:

(أ) الثلاثة تقديسات تُرتل بالتتابع باليونانية ثم باللاتينية مرة قبل ترتيل كيرياليسون، ومرة ثانية قبل قراءة فصل الإنجيل، ومرة ثالثة بعد قراءة الإنجيل. أي أن الثلاثة تقديسات تُرتل في القداس الغالي على ثلاث دفعات، كل دفعة مرتين واحدة باليونانية والأخرى باللاتينية.

(ب) تسبحة زكريا الكاهن Benedictus (لوقا ١:٦٨-٧٩) وتقال بعد ترتيل كيرياليسون التي ترتل في هذا الطقس ثلاث مرات. أما تسبحة الثلاثة فتية القديسين في أتون النار Benedicite، فهي تُرتل بعد قراءة فصل من العهد القديم.

(ج) قراءة الذبتيخا Diptychs، وكذلك قبلة السلام تأتيان كلتاهما قبل قانون القداس[٣٢]، والذي يأتي مباشرة

٣٢- قانون القداس Canon of the mass: هو اصطلاح ليتورجي من الكلمة اليونانية kanèn أي قانون أو نظام لا يتغيّر. وهذا الجزء من الليتورجيا موجود في جميع القداسات اليونانية واللاتينية، وهو دائماً يشتمل على كلمات التأسيس (باستثناء ليتورجية أدي وماري)، وصيغته متشابهة في كافة القداسات منذ القرن الرابع الميلادي. وقد ذكرة القديس أمبروسيوس (+ ٣٩٧م) في مؤلفه "الأسرار - De sacramentis "، وهو يأتي في القداس بعد المقدمة، وبعد "قدوس - Sanctus ". وظل محتفظاً بأصالته في القداسات الشرقية، ولكنه تعرّض لتغييرات مؤلمة في القداس الغربي بدءًا من البابا

قبل رواية التأسيس Institution.

(د) قانون القداس (باستثناء رواية التأسيس) يتغيّر مع تغير المناسبات الكنسية ومواسمها.

(هـ) رواية التأسيس في كثير من القداسات الغالية الموجودة الآن تُتبع بصلاة " Post Pridie " والتي هي شكل من أشكال صلوات الاستدعاء Epiclesis.

(و) تبدأ القسمة مصحوبة بترتيل الأنتيفونا[٣٣] المصاحبة لها قبل الصلاة الربانية "أبانا الذي في السموات..." Paternoster.

(ز) يُرتل لحن للثالوث القدوس أثناء التناول من الأسرار المقدسة يُسمّى " Trecanum "، أي القانون الثلاثي triple canon (من الكلمة اليونانية trik£nwn). ويدور اللحن حول معنى الإيمان بالثالوث القدوس[٣٤].

ثانياً: المعمودية: الأمر الجدير بالاعتبار في الطقس

غريغوريوس الكبير (٥٩٠-٦٠٤م) الذي أدخل عليه تعديلات حتى وصل به الحال إلى أنه أصبح يُصلىّ سراً باستثناء جزء بسيط منه، وذلك في الفترة من سنة ٨٠٠ - ١٩٦٧م. ثم سُمح بترتيله بصوت مسموع اعتباراً من سنة ١٩٦٧م. وفي سنة ١٩٦٩م، حلّ محله صيغة أخرى مشابهة، وأصبح مسموحاً بحذف أجزاء أخرى منه!!!.

٣٣- كل المصطلحات الطقسية والكنسية أفردنا لها كتاباً خاصاً، ولزم التنويه منعاً للتكرار.

٣٤- وُجد اسم هذا اللحن عند القديس جرمانوس من باريس (٣٧٨-٤٤٨م)، وكان حاكماً لجزء من بلاد الغال قبل أن يصبح أسقفاً لإيبارشية أوكسر Axerre سنة ٤١٨م.

الغالي، والذي يختلف عن طقس روما، أن "الاعتراف بالإيمان" يأتي قبل ممارسة التعميد بالماء، إضافة إلى طقس "غسل الأرجل - pedilavium ".

ثالثاً: طقوس الرسامات: يشتمل الطقس الغالي على مراسيم عامة public ceremony لرسامة الرتب الصغرى minor orders استعارها طقس روما من الطقس الغالي. ويمكننا القول أن الطقس الغالي قد أثر على طقس روما في الرسامات الكهنوتية.

إن الطقس الغالي الذي اختلط بالطقس الروماني في بعض المناطق إبّان فترة حُكم بيبين الثالث pepin III (٧١٤-٧٦٨م)، وأُلغي رسمياً بواسطة ابنه الإمبراطور شارلمان، لم يندثر تماماً، بل ظل طقس روما الحالي يحمل سمات امتزاجه مع الطقس الغالي.

ليتورجية بلاد الغال:

لا نعرف عنها سوى القليل، لأنها لم تعش حتى زمن التجديد الذي أجراه شارلمان، ولم يكن لها سوى تنظيم بدائي. ويمكننا تكوين فكرة عن هذه الليتورجية من الإشارات التي وردت عنها في عظات القديس سيزر من آرل César d'Arles، وغريغوريوس الذي من تور Grégoire de Tours، من القرن السادس. وكذلك من بعض المجامع. بالإضافة إلى تفسير القداس الغالي، والمنسوب خطأ إلى القديس جرمان Germain من باريس، والذي يعطينا وصفاً لشكل متأخر لهذه الليتورجية، يعود إلى القرن الثامن الميلادي، أو على الأكثر

نهاية السابع الميلادي. ولدينا كتب قراءات لهذه الليتورجية، ولكنها غير متكاملة. أما كتب الصلوات الخاصة بهذا الطقس فقد تأثرت هي الأخرى بالليتورجية الرومانية والطقس الروماني.

أما من جهة بنية هذه الليتورجية الغالية، فهي ذات علاقة وطيدة بليتورجية أسبانيا القديمة. فالصلاة الكهنوتية المطوّلة مكونة من أقسام متغيرة كما في القداس الموزارابي. وطبقاً لوثائق تعود إلى القرن السابع أو الثامن الميلادي، فإن هذه الليتورجية الغالية قد تأثرت بالتساوي - كما في الليتورجية الموزارابية - بالاستخدامات والممارسات الشرقية، وخاصة الطقس السرياني. وليتورجية ميلان لا تمت بأي صلة إلى أصل شرقي كما ظن بعض العلماء سابقاً[٣٥].

(٥) الطقس السلتي:

والطقس السلتي Celtic Rite هو الطقس المستخدم في كنيسة أيرلندا وإسكتلندا. وقد انتشر هناك بواسطة الرهبان في هذا المناطق. وهو يشتمل على مزيج متجانس من عناصر أجنبية. أما الوثائق القديمة المختصة به فتعود إلى نهاية القرن السابع الميلادي.

والكنيسة السلتية Celtic Church، نعني بها الكنيسة التي

٣٥- مثل العالم دوشسن Mgr Duchesne، والذي لاقت نظريته هذه قبولاً واسعاً في أوائل القرن العشرين. cf. *The Oxford Dicti. of The Christ. Chur.* (*ODCC*), p. ٤٣

كانت موجودة فعلاً في الجزر البريطانية قبل رسالة القديس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) إليها من روما، والتي كتبها حوالي سنة ٣٩٦م. وقد نشأت هذه الكنيسة في غضون القرن الثاني أو الثالث الميلادي تقريباً بواسطة إرساليات وفدت إليها من روما أو بلاد الغال. وفي غضون القرن الرابع الميلادي كانت بنية الكنيسة السلتية قد اكتملت وتنظمت، وكان لها أساقفة يمثلونها في مجامع كنسية عُقدت في القرن الرابع الميلادي، مثل مجمع آرل Arles الذي عُقد سنة ٣١٤م، ومجمع أرمينيم Arminum سنة ٣٥٩م. وكانت البدعة البلاجية Pelagianism قد انتشرت في بريطانيا في غضون القرن الرابع الميلادي. وعندما دخلت القبائل الساكسونية[٣٦] الجزر البريطانية، طمست معالم الحضارة السلتية، وبالتالي الكنيسة السلتية أيضاً. ولقد وجد المسيحيون من أصل سلتي صعوبة في قبول المسيحية الرومانية

٣٦- الساكسون: شعب جرماني عرفهم التاريخ لأول مرة في القرن الثاني الميلادي عندما ذكرهم بطليموس الجغرافي. وأظهروا نشاطاً في غاراتهم على طول سواحل بحر الشمال في القرنين الثالث والرابع. أغاروا على المناطق الرومانية، واصطدموا بالفرنجة. وسُمي شاطئ بريطانيا الجنوبي الغربي، مع الشاطئ الشمالي لبلاد الغال بالشواطئ الساكسونية. وعندما ضعف الاحتلال الروماني لبريطانيا، استوطن جماعات منهم مع جيرانهم الإنجليز، وعُرفوا باسم المملكة الأنجلوساكسونية، وأصبح لها طقس مميز يُعرف باسم الطقس الأنجلوساكسوني، وقد أورد جانباً منه المؤرخ ألفريد بتلر، في كتابه "الكنائس القبطية القديمة في مصر - Ancient Coptic Churches in Egypt". واحتل الساكسون الجزء الشمالي الغربي من ألمانيا، وانتهت نزاعاتهم الكبيرة مع الفرنجة عندما غزاهم شارلمان في مستهل القرن التاسع الميلادي، وضمّهم إلى إمبراطوريته، وتحولوا من الوثنية إلى المسيحية. وعند تقسيم الإمبراطورية في معاهدة فردان سنة ٨٤٣م، دخلت أراضي الساكسون في القسم الذي كوّن بداية ألمانيا الحديثة.

التي دعاهم إليها أغسطينوس أسقف كانتربري[٣٧] سنة ٦٠٣م، ولكنهم وافقوا فيما بعد حوالي سنة ٦٦٤م، وتبنّت بالفعل كنائس إسكتلندا، وأيرلندا، وويلز الممارسات الطقسية الرومانية.

وإلى جانب هذه الطقوس الغربية الرئيسية، فقد ازدهرت طقوس أخرى مثل "طقس أكويلا - Aquileia Rite"، وأيضاً "طقس بنيفنتو Benevento Rite".

٣٧- *ODCC*., ed. ٢, p. ١٠٨